مفتــتح

الانتباه .. مبتدأ الوعي الفائق

محمود حيدر (*)

يرمي هذا المفتتح، النظر إلى الوعي، لا بوصفه إدراكًا للأشياء الواقعة تحت رقابة الحواسِّ الخمس وحسب، بل أيضًا في تبصُّرِه ما يتعدَّى ذلك. فالذي يُدرَك بالحواسِّ لا ينأى من خديعة الرؤية، ولا ينجو من ضلالة الفهم.. إنَّما الغايةُ من وعي كلِّ شيء إدراكُه في ظهوره وبطونه، وتحرِّي ما يتخفَّى وراء تبدِّياته. نظرٌ متبصِّرٌ كهذا هو أدنى إلى «هجرة معرفيَّة» تتوسَّل وعيَ ماهيَّات الأشياءِ في ظهورها وبطونها بلا تفريق أو انفصال. بالهجرة المعرفيَّة يتولَّد شغفٌ رفيعٌ بالارتقاء إلى ما يفوق العاديِّ والظَّاهر في إدراك الموجودات. أمَّا الغاية التامَّة منها فبإدراك تلك الموجودات وَفقَ ما هي عليه، بوحدتها وكثرتها وشهودها وعلَّة وجودها. ولقد ذَكَرَ أهلُ التحقيق وصفًا فريدًا لهذه الولادة لمَّا أشاروا إلى تلك البرهة المفارقة من وعي الوجود، لجهة تحقُّق المطابقة والانسجام بين الكون المُسمَّى بالإنسان الكبير، والشخص الإنسانيِّ المنعوت بالكون الصغير. مع الهجرة الواعية – تأسيسًا على تلك البرهة - ينفسح الأفقُ لنشوء وعيٍ يقينيٍّ بالمبدأ الذي منه ظهرت أشياء الوجود، وبالمُبدِئ الذي أظهر المبدأ واعتنى بكلِّ شيءٍ فيه.

بيان الأمر: إنَّ وعيَ المبدأ الحاوي للكلِّ - الذي هو الإبداع الإلهيُّ الأوَّل - يفضي بالضرورة إلى وعي أفراد الموجودات على اختلاف أجناسها وأنواعها وأصباغها. أمَّا الاستفهام عن كيفيَّات هذا الوعي فيبقى حاضرًا في عالمَيْ الأنطولوجيا والميتافيزيقا. في مقام تنظير الوعي بمنازله الفائقة، يصير التمييز لازمًا

---

*- رئيس التحرير.

بين وعيٍ تستخرجُه وسائط العقل الأدنى ومحسوباته، ووعيٍ متأتٍّ من إيمانٍ فؤاديٍّ يتأبىَّ على حكومة المفاهيم. الموجودات التي أدركها العقل وحوَّلها إلى مفاهيمٍ صارمة تبقى مجهولة النَّسَبِ الأول، ولا تستطيع أن تنجز وعيًا يناسب ماهيَّتها وحقيقتها الذاتيَّة. ولأنَّ الإدراك في هذه الحال لم يجاوز تجريدات الذِّهن، فمن غير اليسير أن يتحوَّل إلى شعورٍ يُحسُّ ويُعاش. وحتى يكون كذلك، أي إدراكًا راسخًا في الشعور، وَجَبَ اختبارُه بالعمل حتى يُحدِثَ نقلةً جوهريَّةً تتحوَّل فيها المفاهيم الذهنيَّة إلى مشاعر وأحاسيس وجدانيَّة.

I

الانتباه إلى الشاكلة

لنا أن نقول، بإزاء الفرضيَّة أعلاه، إنَّ وعي ماهيَّة الشيء يكون بالأثر النَّاجم عن نشاط ذاك الشيء، سواءٌ تأتىَّ الأثرُ على نصاب القول والنظر، أم عن طريق السلوك والتجربة. ذلك بأنَّ فعل الشيء يرسم حقيقته، كما يكشفُ عن جوهره الذي يدلُّ عليه. وهذا الفعل هو إيَّاه الذي يُطلقُ عليه بلسان الوحي بـ «الشاكلة». «قل كلٌّ يعمل على شاكلته{الإسراء، 84]، أي على فطرته الأولى التي لا انزياح عن سنَّتها الحاكمة. والشاكلةُ شأنُ الفطرة؛ إنَّما هي الهندسة الأصليَّة للخِلقةِ الإنسانيَّة العاقلة، بها يُتعرَّفُ على حقيقة عمل المرء، بها تُفهمُ سريرته على ما هي عليه.

في الحاصل.. إنَّ من عايَن الأشياء وأدركها «بشواكلها» تفتَّحت له أسرارها، فاستشعر ما خفِيَ عليه، وما احتجب منها، ثمَّ ليتحقَّق وَعيُه بأصلها وعلَّة وجودها. تلك سيرورة لا تُنجز إلَّا بمعاينة مدركةٍ للمكنون المنغرِسِ في شاكلة النفس. لكنَّ إدراك هذا المكنون على نشأة وعيٍ فائقٍ سيكونُ محتاجًا إلى انعطافة نبيهة تقع خارج السياق المألوف على الإدراك. فلو صار «الانعطاف النبيه» على نحو التحقُّق، لأفلح المدركُ الواعي بما جاز نعتُه بالانتباه اليَقِظ. من هذه الوجهة يغدو الوعيُ بمبدأ الوجود ذروة الانتباه وعمدته الكبرى. وبوعيٍ المبدأ وفق صيرورة الانتباه اليقِظ، ينبسطُ الطريقُ إلى وعيِ البَدء والمنتهى معًا. ولسوف يظهر لنا أنَّ هذه الرّتبة من الوعي تنطوي على قابليَّة التحوُّل إلى قوَّةٍ إدراكيَّة تُنبِّه من يختبرها إلى أنَّه قادر على إحراز ما لا عهد له في مكابدات الفكر واختبارات المعنى.

مع تلك الانعطافة وذلك التحوُّل يتبدَّى أفقٌ مستحدثٌ من إدراكٍ متعالٍ يُمسي على قُربٍ شديد الحساسيَّة مع الوعي الألوهيّ. لكنَّ هذا الطَّور من الوعي، غير العاديِّ وغير المألوف، سوف يحتاج بَدءًا وبالضرورة إلى الانتباه لكي ينجز ذاته. فالانتباه مبتدأ الإدراك المتعالي. به ينفتح الفكر على عهدٍ جديدٍ يستظهر ما حَجَبَتْه الغفلةُ عن إدراك الأصل. وهو بهذه المثابة

علم المبدأ
ILMOLMABDAA
العدد الثامن - 1445هـ - شتاء 2024م

ضربٌ من انقشاعة مباغتة هي أدنى إلى حادث جللٍ في ترقّيات الوعي؛ معه وبسببِه لا يعود الفكرُ مفصولاً عنَ الشعور، ولا المشاعر علىَ تضادٍّ مع التفكير. هذه الوضعيَّة التي تستمدُّ جلالتها من الانتباه، إنما هي خاصِّيَّة جوهريَّة في ظهور الوعي الفائق. فالانقشاعة هنا، هي حقيقة الانتباه، ويمكن أن يقال إنَّها إبصارٌ من بعد عماء، واستيقاظ إثر نوام، وحضورٌ حيٌّ في أعقاب غيبة. وسيعرف الذي يختبر الانتباهة الأولى أنَّه وقف على باب السرِّ؛ فإذا فُتِح له انقشعت لناظريه الغوامض، وانفسحت أمام بصيرته الأمداء، وتوسَّع صدره من بعد ضيق؛ ثمَّ سيرى ما لن يتسنَّى أن يراه من قبل، أو أن يستشعره حتى وهو في لحظة سكينة. مُذَّاك سيربو وَعْيُه بالأشياء إلى الحدِّ الذي إذا نظر فيه إلى الكون اللَّامتناهي السِّعة والعظمة، رآه بعين النقص. مثل هذا الاختبار الموصل إلى «وعي ما بَعديٍّ» هو مقام يسمو على النقصان، ولا يؤتى إلَّا لمن تنبَّه وانعطف صعودًا نحو «المابعديِّ» والفائق. هذا المنعطف الانتباهي لو صحَّ أن نجد له نعتًا يناسبه لقلنا: إنَّه حدثٌ وجدانيٌّ مفارق، لو تعرَّضَ له العقلُ الغارق في دنيا المفاهيم لأيقظه من ضلالات الاستدلال على سرِّ الوجود بالحواسِّ الخمس. من أجل ذلك، سيُقال إنَّ الوعي في طوره «الفائقيِّ» هو وعيٌ راضٍ ومتفائل، بل إنَّه استشعارٌ لكلِّ جميل أنىَّ كانت شدَّة إنكاره. أمَّا الوعي الأدنى فهو وعي متشائم يستظهر نفسه دائمًا بخطبة متشائمة مآلُها العدم والخواء. فإذا كان التشاؤم صبغة العقل الناقص، فالتفاؤل جوهرة العقل المؤيَّد بالحكمة. وما ذلك إلَّا لأنَّه موصول بالواجب برباط وثيق، والواجب خيرٌ بذاته ورحمانيٌّ بذاته. لهذا كان التفاؤل واجبًا وضروريًّا في الآن عينه؛ لأنَّه جاذبٌ للرَّحمانيَّة، وموصلٌ إلى وعيٍ آمن بها يفضي إلى انشراح الصدر.

II

الوعيُ الفائق نظرٌ متطلِّعٌ إلى القدسيّ

يسري الوعي - في منزلة كونه وعيًا ما بعديًّا- إلى ما يتعدَّى أطراف الزمان والمكان الفيزيائيَّين. وبهذا المقتضى لن نجد في ثناياه أيَّ تباين أو انفصال بين الأنطولوجيِّ والأبستمولوجيِّ، ولا بين الغيبيِّ والواقعيِّ. كلُّ ما في الوعي الفائق من مراتب وعناصر وخصائص، يتآزر معًا ويتَّحد معًا، من أجل أن يجيب عن استفهامات الوجود بآفاقها الغيبيَّة وأبعادها الواقعيَّة. من مفارقات هذا الوعي، أنَّ السَّالك إليه متطلِّعٌ إلى القُدسيِّ ومهتمٌ في الآن نفسه بمقتضيات الأرضيِّ بلا مفارقة أو نسيان. يأخذ بالأسباب الواقعيَّة ويعمل على مجاوزتها، ويكون في الوقت نفسه، على يقين بأنَّ فعل المجاوزة هو تتميم لما احتجب من الأسباب الواقعيَّة نفسها. يعي أنَّ ظواهر الأشياء والأحداث لا تكفي من أجل أن يتمكَّن المرء من وعي غاياتها ومقاصدها الحقَّة أنىَّ كانت حسابات المنطق في مطابقة للواقع.

ولئن كان لنا أن نرى إلى الفائق رؤية تناظر مع ما انصرف إليه أبو نصر الفارابي لدى بسطه شروط اليقين، لوجدناه نظير ما سمَّاه «اليقين المطلق» أو «اليقين الحقيقيّ». لقد أقام هذا اليقين - كما هو مقروء في منطِقيَّاته - على أربعة أركان:

أ- أن يعتقد المرء في الشيء أنَّه كذا وليس بكذا.

ب- أن يكون هذا الشيء مطابقًا وغير مقابل لوجود الشيء من خارج.

ج- أن يَعلم أنَّه مطابق له.

د- أن يَعلم أنَّه غير ممكن أن لا يكون قد طابقه أو أن يكون قد قابله. (الفارابي - المنطقيَّات).

لو أخذنا بهذه الشرائط كتمهيدات للبناء والفهم، لرأينا تماهيًا جوهريًّا بين مدارج اليقين الحقيقيِّ وما قصدناه من الوعي الفائق ومدارجه. الأمر الذي يدلُّ على أنَّ الوعي الفائق لا يقطع مع النظام المنطقيِّ للوعي الأدنى كما قرَّرته منطقيَّات الفلسفة الأولى. فلا تناقض بين الفائقيَّة في تعاليها الميتافيزيقيِّ، واليقينيَّة في حدود العقل القياسيِّ ومقولاته. ونظرًا لتعاليه الحكيم يحرص الوعي الفائق على مراعاته لأحكام العقل الأدنى بما يناسب ماهيَّته ومقتضيات نشاطه الطبيعيِّ لجهة تشكيل التصوُّرات وإنتاج المفاهيم. من وجهٍ آخر، تنطوي الفائقيَّة على انفتاحات غير محسوبة، وكذلك على حقائق مكنونة واقعة فوق طور العقل القياسيّ. ويجوز أن نطلق على هذا الطور عبارة «وعي الذروة»، حيث يصل المتيقِّن بفضله إلى مكانة لا يعود يخالطه شكٌّ أو ريب في ما أدركه من وقائع. فاليقين الحقيقيُّ بوصف كونه إيمانًا بالمُبدِيء والمعيد، هو أن تعلم أنَّ الله قادرٌ على ما يشاء، حتى حين تكون الأسباب الطبيعيَّة الواقعيَّة خلاف ذلك. فالمتيقِّن مطمئنٌّ إلى أنَّ ما بلغه وعيُه من مراتب غير عاديَّة هو حقيقيٌّ وصائب، لأنّ صلته بالقادر صلةُ وعيٍ بالقدرة تمدُّه بالاقتدار وتسدِّدُه باليقين.

إذا أجرينا فحصًا متأنّيًا للوعي في طوره «الما بعديِّ» سوف يظهر لنا كيف أنَّ الإنسان بطبعه وفطرته الأولى توَّاقٌ إلى مجاوزة مدركاته الفيزيائيَّة. فالوعي في حدود هذه المدركات منحصرٌ في إدراك صورة الشيء لا حقيقته. وعلى المدرِك لكي يدرك ما وراء الصورة، أن يوقن أنَّ حقيقيَّة الصورة لا تُنال إلَّا بكشف ما يستتر في المَاوراء؛ ثمَّ أن يوقن أن تحصيل هذا المنال شرطُه الانتباه الذي هو حاسَّة الحواسّ، وكلمة الكلمات، وحياة الحياة.

الوعي الفائق، بهذه السِّمة الانتباهيَّة هو إذًا، فعلٌ قياميٌّ يجاوز ما يلتجئ إليه الوعي الأدنى حين يتعذَّرعليه إدراك ماهيَّات الأشياء. عند هذا المفترق خصوصًا، يمضي هذا الوعي إلى التشكُّل داخل تربة الواقع الحيّ. وهذا ما نسمّيه بـ«الخبرة الواعية» المؤسَّسةِ بدءًا

علم المبدأ
العدد الثامن - 1445هـ - شتاء 2024م

على الانتباه. معها تغدو فعاليَّة المجاوزة معادلة لإرادة الكشف عمَّا هو مجهول ومستتر. فهذه الخبرة هي أكثر الأشياء التي نحن على أُنسٍ بها في حياتنا، إلَّا أنَّها في الوقت نفسه تُعدُّ الأكثر غموضًا. لذا سيكون من الصعب تعريفُها بأفكار أكثر أوليَّة منها، مع أنَّه يمكننا في الوقت نفسه تعريف - أو تحديد - موضوعها. فلكي نحصل على خبرة معيَّنة، لا بدَّ من أن ندخل في علاقة علِّيَّة مع العالم الخارجيّ. بيد أنَّ هناك جانبًا ذاتيًّا للخبرة الواعية هو الشعور المصاحب للإدراك. ومن هنا بالذات يصبح الأفق مشرعًا أمام ما دعوناه بالانتباه الذي منه، وبسببه يكتسب الكلام على الوعي الفائق مشروعيَّته المعرفيَّة. وهكذا، فالخبرة بهذه المثابة هي التي ستغذِّي الوعي الفائق، وتدفعه نحو التطلّع إلى القدسيِّ كنقطة عليا في سيريَّة وعي الإنسان بمُبدِئ المبادئ وواجد الوجود.

على المعنى الذي نرمي إليه، ليست الخبرة فقط مجرَّد حصيلة عملٍ مُضنٍ تضاربت فيه تيَّارات الخطأ والصواب، وإنما هي منهج فائق الرتبة، غايته استبصار «المابعد» ومصادقة الأمر القدسيّ. والخبرةُ الواعية بوصفها منهجًا للوعي الفائق، هي ثمرة اتِّحاد وطيد بين العقل المؤيَّد بالوحي والعمل المهتدي بهما معًا. بنتيجة هذه الوحدة المثلَّثة الأركان يسلك الآدميُّ سيرْيّة صاعدة يتآخى فيها وعيُ النفس مع إدراك واعٍ لمبدأ الموجودات وصولاً إلى وعي الألوهيَّة المبُدِئة لكلِّ موجود.

عند هذه النقطة بالذَّات، سنكون تلقاء منهج «ما بعديٍّ» يميِّز بدقَّة بين المراتب المتفاوتة للوعي، وخصوصًا تمييز الوعي بالكون عن الوعي بالله. ولنا أن نورد في ما يلي أربعة منازل:

المنزل الأوَّل: التعالي الوجوديُّ (Ontological transcendence): ويعني أنَّ الله متمايز وجوديًّا عن العالم. في هذا النوع من التعالي يذهب بعض أهل الميتافيزيقا القَبْليَّة إلى اعتبار الله جوهرًا مستقلًّا، في حين يرفضه بعضهم الآخر مثل سبينوزا، الذين لا يعتقدون إلَّا بجوهر واحد، ويعتبرون الحقَّ والخلق جانبين لهذا الجوهر. ومن وجهة نظر فلسفة اللَّاهوت يتمايز الخلق عن الحقِّ بمستوى تمايز المحدود عن اللَّامحدود. وتبعًا للفيلسوف والعارف الألمانيِّ مايستر إيكهارت(1260-1328)، سنجد تأويلاً يعرب عن تمايز بيِّن وعميق في العلاقة بين الله والعالم، بحيث لو اعتبرنا الخلق ذا وجود - كما يستفاد من إيكهارت - لكان علينا أن نعتبر الله فوق الوجود. ولو اعتبرنا الحق وجودًا، لكان علينا أن نعتبر الخلق عدمًا.

المنزل الثَّاني: التعالي المنطقيِّ (Logical transcendence)، ويعني أنَّ الله يرفض الخضوع لقوانين المنطق المتداول - حسب ديكارت إنَّ الله بمقدوره أن ينقض قوانين المنطق. ووحدة وجود ابن العربي وإيكهارت تعتقد - كما رأينا بمثل هذا النوع من التعالي - من خلال اعتقادها أنَّ الله جمع الأضداد.

المنزل الثَّالث: التعالي المعرفيّ (epistemological transcendence)، ومعناه أنَّه لا يمكن أن يكون لدينا أيُّ نوع من الإدراك المتعارف لله. وهذا النوع من التعالي متَّصل بمقام ذات الله.

المنزل الرَّابع: التعالي المفاهيميّ (Conceptual transcendence)، وطبقًا لهذا النوع من التعالي لا يمكن أيُّ مفهوم أو تعريف أو وصف أن يستوعب الله. فلا يمكن تعريفه ويتعذَّر التحدُّث بالرسم عنه. ولا يمكن قياسه بشيء، ومن المحال تشبيهه بشيء.[الكاكائي – وحدة الوحود برواية ابن عربي وإيكهارت- دار المعارف الحكميَّة- ص 630].

من الحكماء من ذهب إلى أنَّ الاستدلال المنطقيَّ على وجود الله يعني إنكاره. والحجَّة التي يتأيَّد بها أصحاب هذا المذهب، أنَّ الإنسان لا يمكن أن يعي الله بالتفكير المفهوميِّ، وإنَّما بالاهتمام المطلق، أي بتوحيده وتنزيهه والإقرار بقيوميَّته وعنايته. وهذا هو الذي يفسِّر طبيعة الخطبة العرفانيَّة التي تعتمد الرمز للوصول إلى وعي أكثر عمقًا بالألوهيَّة. للدَّاعي نفسه سنجد كيف وصف الربَّانيّون معارفهم بالسرِّ الذي يتلقَّاه العارف من دون أن يقدر على الإفصاح عن ماهيَّته وحقيقته بالعبارة والكلمة. هذه القضيَّة سيقاربُها اللَّاهوتيُّ والفيلسوف الألمانيُّ رودولف أوتو (1869-1937) بضرب من الخصوصيَّة المعرفيَّة لمَّا أطلق على الشيء الذي يتوجَّه إليه الوعي الألوهيُّ اسم السرِّ الرَّهيب. والرهيب (tremedum) - بحسب أوتو - هو الذي يضيف إلى السرِّ (mysterium) ما ليس كامنًا فيه بالضرورة. صحيح أنَّ الارتدادات الكامنة في الوعي، والمناسبة لأحد اللَّفظين، تفيض تلقائيًّا وعفويًّا في الارتدادات التي تناسب اللَّفظ الآخر، إلَّا أنَّ أيَّ امرئ مرهف الحسِّ لا يلبث حين يستخدم اللَّفظين أن يشعر مثل غيره بأنَّ فكرة "السرّ" ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمحمولها الوصفيِّ والشموليِّ، إذ يغدو "السرُّ" بعض الشيء، من تلقاء ذاته، "سرًّا رهيبًا" بالنسبة إلينا. ولأنَّه يحتاج إلى لفظٍ يكون وقفًا عليه وحده، فالأنسب له هو لفظ "الدَّهشة" (Stupor). فالدَّهشة، ببساطة، شيء مختلف عن الرَّهبة؛ وهي تدلُّ على إعجاب خاوٍ، وعلى انذهال يستولي علينا فيحبس فينا أنفسنا. من هنا، فإنَّ لفظ السرِّ- كما يضيف أوتو - لو أُخِذ بمعناه الطبيعيّ من دون سواه، يعني أمرًا مكتومًا، أو خفيًّا، بمعنى الشيء الغريب وغير المفهوم، وغير المفسَّر. ومن هذا القبيل، لن يكون السرُّ العرفانيُّ سوى مصطلح فكريٍّ وخاطرة قبسيَّة تُستَمَدُّ من الدائرة الطبيعيَّة موضحة المعنى الواقعيَّ، لكنَّها عاجزةٌ عن أن تفصح عنه إفصاحًا تامًّا. فما هو سرّيٌّ - متى أخذ به حسب معناه الدينيِّ - إنَّما هو "ذو الغيريَّة التامَّة"، الذي يوجد بتمامه خارج دائرة المعهود، والممكن إدراكه، والمستأنَسِ به، والذي يقع نتيجة لذلك، بالضبط، خلف حدود "المألوف"، ويناقضه، مالئًا الذهن دهشة وذهولاً (..) فالأمر "السرّيُّ" حقًّا يقع خارج

إمساكنا به، أو إدراكنا له، وذلك ليس لأنَّ لمعرفتنا حدودًا مرسومة فقط، وإنَّما لأنَّنا نلتقي فيه بما هو "ذو غيريَّة تامَّة"، وما جِبْلَتُه وصَبْغَتُه لا تقاسان بما لدينا من مثيلهما، وما نرتدُّ بإزائه على أعقابنا، فنهوي في الذهول الذي يلقي فينا رعدة الفرائص.[رودولف أوتو – فكرة القدسيّ – التقصِّي عن العامل غير العقلانيِّ فكرة الإلهيّ – معهد المعارف الحكْميَّة - 2010 – ص: 49-50-51].

التجربة الحدسيَّة أو ما يُعرف عند برغسون بـ«اللَّمح الباطني»، أو «الكشف» عند العرفاء، هي حالة منفردة بذاتها وتختزن كمالات غير قابلة للتحليل المنطقيِّ، مقابل اختبارات الوعي التصوُّريّ. والحدس كما يبيِّن علماء الظواهر(الفينومينولوجيا) هذه المقدرة على التوغُّل عبر الحاجز بين الوعي الظاهريِّ، والوعي الباطنيِّ (اللَّاوعي). ولأنَّ هذا الأخير متصلٌ بالوعي الكلّيِّ، فإنَّه يستطيع العثور على منفذ إلى مصدر لمعرفة مفارقة لأعراض الأشياء ومظاهرها. في المدوَّنة العرفانيَّة الإسلاميَّة سنجد ما يتعدَّى هذا التأويل ليقول الكلمة الفصل حول الوعي بالله. في فتوحاته، يقدم ابن عربي وصفًا معميق الدلالة لما سيؤول إليه وعي المعرفة الإلهيَّة: «إنَّ الله إدراكٌ لا تصوُّر». بيان الأمر أنَّ معرفة الله معرفة يقين وسكينة، لا يُفلح بها إلَّا بالاستشعار والعيش والاختبار. فلئن كان الوعي العقلانيُّ ينطوي على التحليل والتركيب، ففي الوعي «المابعد عقلانيِّ»، تلتقي جميع البواعث المتنوِّعة معًا لتشكِّل وحدة واحدة غير قابلة للقسمة؛ حيث لا يوجد تمييز بين ذات وموضوع»...

على هذا، فإنَّ وعي الحقيقة الإلهيَّة كإعراب أصيل عن الوعي الفائق هو أعمق من وعي إله تعبِّر عنه صورة مفهوميَّة جزئيَّة. سوف يحرص فلاسفة لاهوت معاصرون على القول أنَّ الاستدلال على وجود الله يعني إنكاره، وأنَّه من غير الممكن معرفة الله بالتفكير المفهوميِّ، بل بالاهتمام المطلق. وهذا هو أحد أظهر أسباب استخدام الرموز الدينيَّة في الحديث عن الله بدل الخطاب المفاهيميّ. من أجل ذلك، سنرى كيف مَالَ الفيلسوف الألمانيُّ بول تيليش إلى تظهير اللُّغة الدينيَّة بمصطلحات رمزيَّة أكثر من التعبير بالأمثلة أو بالخطاب التشبيهيّ. وهذا عائد عنده إلى سببين:

الأوَّل: أنَّ الله لا يبقى هو «الله» عندما نحاول وصفه، أو حين ندافع عنه بوساطة المفاهيم. إذ يُفترض تجنُّب هذه المشكلة عند استخدام الرموز، فالرموز الدينيَّة هي تمثُّلات لما يتجاوز الدائرة المفهوميَّة بشكل لا مشروط... وهي تمثِّل المتعالي...لا تجعل الله جزءًا من العالم المادّيِّ، بل تتعالى على الحقل «المقسوم بين الذاتيَّة والموضوعيَّة».

ثانيًا: رغم الغموض الذي يلفُّ المسألة، نجد أنَّ تيليش مدين كثيرًا لعلم النفس اليونغيِّ

psychology of Jung القائل بأنَّ الإنسان الحديث يعاني من شحٍّ الرموز. وعلى ما يرى فإنَّ جزءًا من مرض واضطراب الوعي الحديث ينبعث من فساد الصور والرموز التي كان لها في الماضي قوَّة حيويَّة. أمَّا النتيجة النهائيَّة لهذا الاتِّجاه فستكون شللاً وتعطُّلاً؛ ذلك لأنَّ للرموز طاقة حيويَّة تنجز التفاعل الضروريَّ بين الوعي واللَّاوعي. من هذا النحو يؤكِّد تيليش، تماشيًا مع يونغ، أنَّ السرَّ المقدَّس، بخلاف الكلمة المجرَّدة، إذا كان حيًّا، فإنَّه يستحوذ على لاوعينا وعلى وجودنا الواعي، بل على الأساس الخلَّاق لوجودنا». وبما أنَّ الله أيضًا هو أساس لوجودنا، نستطيع القول أنَّ الرمز الذي يتغلغل إلى لاوعينا يدلُّ على الله. (تيلتش - بواعث الإيمان ص 161). كلُّ ذاك يشير إلى أنَّ مفاد الرمز في الصنع الإلهيِّ هو النأي عن تقييدات المفاهيم قَصْدَ الوصول إلى وعي الألوهيَّة وعيًا فائقًا. إلَّا أنَّ النأي عن المفاهيم كمعيار للوعي الفائق ليس قرارًا اتَّخذه صاحبه من بعد إعمال مديد للعقل، وإنَّما هو دفقٌ معنويٌّ تحرَّر من معياريَّة العقل الحسابيِّ، ثمَّ شقَّ سبيله نحو منطق مُفارِق لا يجد مستقرَّه إلَّا في علياء الشأن القدسيّ. ففي هذه الدائرة غير المتناهية يجيء الإيمانَ بالمقدَّس ليشكِّل قوة فوق طبيعيَّة هي الوحيدة التي يمكنها الاقتراب من وعي الحقيقة الإلهيَّة.

III

إمكان نظريَّة معرفة للوعي الفائق

القول بإمكان نظريَّة معرفة للوعي الفائق، يوجبُ الإلتفات إلى ثلاثة استفهامات والعناية بالإجابة عليها: أوَّلها: إمكان التنظير لنظامٍ معرفيٍّ مُفارِق له مبانيه وأركانه ونظريَّاته. ثانيها: الوعي كأفق ميتافيزيقيٍّ ينحو منحَى الغيبِ وعلمِ الوجود. ثالثها: الوعي بما هو معرفة بالواقع التاريخيِّ، وكحضورٌ فاعلٌ وحيٌّ في الحضارة الإنسانيَّة.

الإجابة عن الاستفهامات المذكورة تفترض فهمَ الارتباط الجوهريِّ بين هذين الأفقين وتبعاً لمنطقَيْن متلازمين هما: منطق النظر ومنطق الأثر. الأول، يعني الكيفيَّة التي يتعرَّف فيها "العقل المتنبِّه" على الحقِّ المُبدئ للخلق.. والثاني: دالٌّ على ما يحصِّلهُ الكائن الواعي من معارف وكشوفات ترفعه إلى وعيٍ لا يألفه العقل الأدنى ولا يقدر عليه. ولذا، فإنَّ ما يفترضه إمكان نظريَّة معرفة هو الأخذ بوحدة المنطقَيْن وتكاملهما، وإن كان لكلٍّ منهما سمْتُه المخصوص، والدور المفترض الذي يؤدِّيه. أمَّا حاصل ما يمكن التوصُّل إليه في هذا الشأن، فهو طائفة من المباني المقترحة يؤمَّل أن تمهِّد إلى منهج ونظريَّة معرفة فائقة.

المبنى الأوَّل: واحديَّة النظر والعمل :لو سلَّمنا بفرضيَّة نظريَّة معرفة لوعي فائق قائمة على واحديَّة النظر والعمل، فذلك يومئ إلى خاصِّيَّة لا يشاركها فيها أيٌّ من نظريَّات المعرفة التي

تنهضُ عليها العلوم الإنسانيَّة الأخرى. الحجَّة في ذلك، أنَّ ماهيَّة الوعي الفائق تنطوي على تكوينٍ ذاتيٍّ يجعلُها تستعصي على الإنجاز ما لم تتضافر قواعد عمل العقل النظريِّ (البرهان والاستدلال والتجربة)، مع اختبار الوجود من خلال استشعاره وعيشه ذاتيًّا والإصغاء إلى ندائه. الوحدة التي يعقدها الكائن الواعي بين نظره وعمله، سوف تنعطف به إلى مسرىً يغاير ما يركن إليه أهلُ الاستدلال والبرهان في تحصيل معارفهم. فالعلم يسدِّد العمل، فيما العمل المسدَّد بالعلم يصبح علمًا جديدًا أسمى وأرقى.

المبنى الثَّاني: الجمع بين أطوار العقل: تفترض معرفيَّات الوعي الفائق سبيلاً لاستكشاف إمكانات العقل في الوصل بين عالمَين يُظنُّ أنَّهما متغايران: عالم الغيب وعالم الواقع. والكلام على العقل في هذا المقام ينحو نحوًا مفارقًا في سياق بحثه الشاقِّ عن الرَّابطة الامتداديَّة بين أطواره المتعدِّدة في سبيل الوصول إلى وعي الميثاق المعقود بين الوحي وتاريخيَّة الوجود الإنسانيّ. وعلى ما يبيِّن منظِّرو هذه الخاصِّيَّة، فإنَّ تبيُّن ما هو عقلانيٌّ، عبر ما ليس عقلانيًّا - أي الغيب - يفضي إلى زيادة التصوُّر العقلانيِّ عن الله عمقًا. مثل هذا التحويل الذي يجريه الإيمان بالغيب في مضاعفة النشاط الفائق للوعي، سوف يؤسِّس لأفق متعالٍ من الإدراك قوامه الوصل المنهجيُّ بين فاعليَّة الغيب في الواقع، ومؤثِّرات هذه الفاعليَّة في تنشيط قابليَّات العقل واستعداده للامتداد إلى ما وراء عالم الحسّ.

والأمر العقلانيُّ، لو أردنا أن نعاينه في منزلة الانتباه الواعي، سوف نجد له وجهًا آخر غير مرئيٍّ لكنَّه في منتهى العقلانيَّة. يسري هذا على الاعتقاد والإيمان اللَّذين أقامتهما فلسفة الوعي الطبيعيِّ في حدود السببيَّة الفيزيائيَّة، ورأت إليهما كمعطيات لاعقلانيَّة. فإذا كان الانتباه مصدرًا لوعي فائق فإنَّ هذا الوعي وبغضِّ النظر عن ماهيَّته هو متَّصل بالعقل. يروح المنتبه يستوعبه، يأنس به أو يرتهب منه، إلَّا أنَّه بالنسبة إليه ضربٌ من إدراك لخطبٍ يؤسِّس عليه. لذا، ليست العقلانيَّة بهذه الصيرورة إنكارًا للمعجز من حيث كونه خرقًا للعلاقة السببيَّة الحاكمة على الطبيعة، بل هي عينها أمرٌ عقلانيٌّ إذا نُظر إليها من ثنايا التجربة المعنويَّة أو الاختبار الروحيّ. فبإمكان المرء الذي أخذ بمسلك المراقبة الذاتيَّة أن يتوقَّع تلقّي ما هو غير معهود حتى يتحقَّق وعيٌ به حين يلقاه.

خاصِّيَّة المنهج الجامع بين أطوار العقل، أنَّه يوحِّد العقلانيَّ واللَّاعقلانيَّ وفق جدليَّة التضادِّ والانسجام. وهذا يعود إلى إحاطته بالمناهج العقليَّة، لا على سبيل العبور الذي يليه الإلغاء والنفي، وإنَّما ليجعلها منازل ومحطَّات ضروريَّة بغية التعرُّف إلى الحقِّ المحتجب في عالم الخلق. والنتيجة التي تنتهي إليها تلك الجدليَّة، هي شهود الحقِّ المتجلِّي بالخلق. فالشهود هو إدراك حقائق المخلوقات بوساطة طَور أعلى من أطوار العقل. ومن مفارقات هذا

الطَّور الشهوديِّ أنَّه إذ يحتفظ بتساميه من أجل أن ينجزَ مهمَّة استكشاف الحقائق المحتجبة، لا ينفكُّ عن التواصل بالمراتب الدنيا التي تتعقَّل الموجودات كلاًّ بمقدار سِعَتِها. وهذا العقل الذي سمَّاه الحكماء المسلمون بـ«العقل القدسيّ» هو ذاك الذي ينطوي في ذاته على العقل المبتدئ، أو ما يُسمَّى بـ«العقل الفطريّ».

المبنى الثَّالث: العقل الممتدُّ أو الشهود العقليّ: لا يكتفي النظام المعرفيُّ للوعي الفائق ببيان القواعد العقليَّة والأسُس النظريَّة للمكاشفات القلبيَّة والمشاهدات الباطنيَّة، بل يعتني بدور آخر بالغ الأهميَّة، هو تقرير هذه المكاشفات وإخراجها من كمونها في عالم الباطن إلى عالم الظهور، ومن الغيب إلى الواقع المشهود. وعندما يفارق العقل المقيَّد بعالم الحواسِّ فإنَّه يجاوز نفسه نحو عالمٍ عقليٍّ مفارقٍ تنفسحُ فيه المدارك وتتلاحم فيه الآفاق.

من المشكلات المعرفيَّة التي واجهت بعض النُّظّار أنَّهم أجروا فصلاً غير منطقيٍّ بين العقل الفلسفيِّ الذي اعتنى بتفسير وتحليل حقائق عالم الطبيعة، وغاية العقل الممتدِّ لفهم أسرار الغيب. ولذا، فإنَّ من أعجب الأمور - كما يبيِّن العرفاء - كون الإنسان يقلِّد فكره ونظره، وهما مُحْدثان مثله، وقوَّة من قوى الإنسان التي خلقها الله فيه ويقلّدها العقل في ما تعطيه هذه القوَّة، مع علمه أنَّها لا تتعدَّى مرتبتها، وأنَّها تعجز في نفسها عن أن يكون لها حكم قوَّة أخرى مثل القوَّة الحافظة والمصوّرة والمتخيّلة، والقوى التي هي الحواسُّ من لمس وطعم وشمٍّ وسمع وبصر. ومع كلِّ هذا القصور يقلِّدها العقل في معرفة ربِّه، ولا يقلِّد ربَّه في ما يخبر به عن نفسه في كتابه وعلى ألسنة رسله.

المبنى الرَّابع: منزلة الإلهام في رفد الوعي الفائق: الإلهام «خبرٌ إلهيٌّ»، يُعلنُ بطُرقٍ ومراتب لا حصر لها. ولكي يجد مستقرًّا له في مستودع الوعي الفائق، يحتاج إلى أُذُنٍ واعية توسُّلاً لتلقّي الخبر اليقين. والأذن الواعية - بحسب المقصد القرآنيِّ - هي التي تعي مصدر النداء المقبل إليها من الغيب وجدانًا وعقلاً. أي أنَّها تعيه سمعًا وقبولاً بشهود العقل وشهادته. فالعقل على ما يتَّفق علماء الأصول - محتاج في علمه ونتائجه إلى السماع، وأنه (أي الإصغاء المتعقِّل) غير منفكٍّ عن سمعٍ ينبِّه العاقل على كيفيَّة الاستدلال. وعلى هذا الأساس فإنَّ العقل، وبتنبيه من الوحي، يدرك ما هي حدود معرفته، وينبِّهُه إلى مدركاته العقليَّة. بل حتَّى حيال الأصول العقليَّة الأساسيَّة فإنَّ المرء يحتاج إلى التذكير والتنبيه والإيقاظ. من أجل ذلك يصير للإلهام مكانة مؤسِّسة للوعي الفائق بوصفه انتباهًا إلى المبدأ وتنبيهًا إلى وجوب الوعي بالأصل. ولئن كان الانتباه خبراً جللاً يؤتىَ من إلهامات الأمر القدسيِّ وعناياته، إلاَّ أنَّه يَفرُقُ عن الوحي بطريقة التلقِّي والإفاضة. وذلك يناظر آليَّات التفريق والتمييز بين علوم الأنبياء ومعارف الأولياء. لذلك ينبِّه العرفاء إلى اجتناب الخلط بين هذين المعنيين.

ولقد تنبَّه الشيخ الأكبر في «الفتوحات» إلى هذه الرقيقة بقوله: «إنَّ لنا من الله الإلهام، لا الوحي»، ولا يُدركُ الإلهامُ بالعقل إنَّما بطريق القلب. ولتبسيط الطريق المؤدّية إلى الإلهام يقول: «لمَّا رأت عقول أهل الايمان بالله أنَّ ثمَّ علمًا آخر بالله لا تصل إليه من طريق الفكر استعملت الرياضات، والخلوات، والمجاهدات، وقطع العلائق، والانفراد، والجلوس مع الله بتفريغ القلب من شوائب الأفكار، فقد علمت أنَّ الطريق إليه من جهة القلب هي أقرب إليها من طريق من فكرها... ثمَّ يمضي ابن عربي مسافة أبعد ليميِّز بين الإلهام الذي ينصحنا بتحرّي مصدره وبين «العلم اللَّدنيّ». فالإلهام عارضٌ طارئ؛ يزول ويجيء غيره، والعلم اللَّدني ثابت، لا يبرح. فمنه يكون في أصل الخِلقة الجِبلَّة كعلم الحيوانات والأطفال ببعض منافعهم ومضارّهم، وهذا علمٌ ضروريٌّ لا إلهام. وأمَّا قَوله تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} [النحل- 68]، فإنَّه يريد منه بيان النشأة الأصليَّة التي فطرها الله عليها. والإلهام قد يصيب، وقد يخطئ. فالمصيب منه يُسمَّى «علم الإلهام»، وما يخطئ منه يسمَّى إلهامًا لا علمًا، أي لا علم إلهام. (الفتوحات- ج -1 ص 286) وهكذا، فإنَّ الإلهام الإلهيَّ يمدُّ المصلحين والحكماء والفلاسفة بالنواميس التي تبقي فيها حالة الصلاح دائمة على الأرض من دون أن يخطر ببالهم أنَّ عملهم وأفكارهم تأتيهم من دون علم مسبق منهم.

المبنى الخامس: التَّوحيد الواعي بين النقل والعقل والكشف: يفيدنا النظام المعرفيُّ للحكمة التوحيديَّة المتعالية بخطَّة مثلَّثة الأضلاع يمكن عدُّها من التمهيدات الضروريَّة في نظريَّة المعرفة الفائقة، وهي وحدة الصلة بين: الوحي والعقل والكشف. ولنا أن نذكِّر بناء على ذلك بطائفة من الترتيبات:

أ- وعي حقيقة النفس، بأنَّ لها القدرة على الجمع بين الحقائق العينيَّة والمعارف اليقينيَّة.

ب- المعرفة القلبيَّة بما هي أساس معرفة النفس، بل محلُّ التجلّي والادراك؛ فلا معرفة من دون شهود النفس لذاتها؛ ذلك بأنَّها شعورٌ وحركةٌ داخليَّان، وتفاعل ذاتيٌّ، وأمر وجوديّ. والنفس حقيقة الإنسان وروحه، "فمن لا معرفة له بالنفس لا وجود لنفسه، لأنَّ وجود النفس هو عين النور والحضور والشعور".

ج- الألم والمعاناة من مفارقة الحقائق. ولا يرتفع الألم إلَّا بإدراك ملائمٍ لمقام النفس وأحوالها.

د- العشق والشوق والمحبَّة، وهي مصطلحات لا تدلُّ على معنى واحد؛ وإنَّما تتفاوت بحسب النشأة الإمكانيَّة للهويّات الوجوديَّة.

هـ- الذي يُبنى عليه الشهود هو التجرُّد والتعالي، ويكون ذلك عبر الرياضة والمجاهدة

الروحيَّة والعلميَّة، وبشرائط مخصوصة".

المبنى السَّادس: الطَّور الأعلى من الوعي وتعذُّر البوح به لفظًا: للوعي الفائق طورٌ يتعذَّر أمره على صريح العبارة، حتى لأولئك الذين بلغوا رسوخًا في المعارف الإلهيَّة. ولقد أظهرت الخبرات أنَّ صاحب الوعي الفائق حين يبوح بحال من أحواله على نحو المجاز والترميز، لا ينبغي أن نتوقَّع منه شرحًا عمَّا هو فيه، أو في ما اختبره في نفسه. وقد تكون هذه واحدة من أظهر سمات الأولياء والعارفين ممَّن رزقوا العلوم الكشفيَّة، وما بان لهم من حقائق الغيب. ولئن كان لكلِّ وليٍّ اختبار معنويٌّ، فهو مخصوص به وليس لغيره منه إلَّا حظّ الإخبار اللَّفظيِّ، فضلاً عن أنَّه لا يتكرَّر للوليِّ على النحو الذي جاءه من قبل. ولذا، فالحادث الروحيُّ الذي مرَّ على عين العارف وفؤاده، إن هو إلَّا إخبارٌ إلهيٌّ عن أمر غير منظور حتى للعارف نفسه من قبل أن يؤتى بالخبر اليقين. وما ذاك إلَّا لأنَّ هذا الحادث - وإن كان ثمرة سير وسلوك ومجاهدة - فهو إشراقٌ رحمانيٌّ حلَّ في صدره من لَدُنِ الروح القدس.

المبنى السَّابع: الوعي الفائق في جمعِه الفلسفة إلى الحكمة الغيبيَّة: درجت ميتافيزيقا العقل المتناهي على حصر نشاطها داخل كهف الإدراكات الحسّيَّة. فكان أن حصلت جرَّاء ذلك، انثلاماتٌ مفجعةٌ في البنية التكوينيَّة للشخصيَّة الإنسانيَّة، خصوصًا لجهة عزل الإنسان عن بُعده المتعالي الموصول بالألوهيَّة. ولأنَّ الكائن الآدميَّ ميتافيزيقيٌّ بالفطرة وأصل نشأته، فهو يحوز على قابليَّة الترقِّي وبوساطة العقل نفسه إلى عالم المعاني. فالوصول إلى وعي حقائق العالم «المابَعديِّ» هو صيرورة عقليَّة معنويَّة متلازمة، ولازمة لماهيَّة الإنسان التكوينيَّة ومنغرسة فيها. ولأنَّ معاني الوجود وحقائقه محتجبة وراء ستار الكون، فقد عُدَّ إدراكها هو مرتبةً من مراتب العلم التي توصَّل إليها الإنسان بصيرورته العقليَّة المنفتحة على «المابعد ميتافيزيقيّ».

IV

مشقَّةُ الانعطاف من الوعي المبتور إلى فائق الوعي

الوعي المبتور للوجود هو كلُّ مسعىً إدراكيٍّ لا يفلح في الجمع بين وعي الغيب ووعي الواقع بوصفهما عالماً واحدًا. معضلة النظريَّات الوجوديَّة المبتورة قديمُها ومستحدثُها، أنَّها أخلدت إلى أرض المفاهيم، ومكثت تحت سقوفها، حتى وهي تتحرَّى ماهيَّة الرتبة «فوق العقليَّة» في فهم الوجود.

في المسرى المعرفيِّ للفلسفة الحديثة سنشهد من الوقائع ما يشير إلى انحصار بواعث الوعي بعالم الإمكان، وبشروط إقامة الانسان في هذا العالم. على امتداد أزمنة الحداثة جرى

تعريف الوعيُ (Consciousness) بأنَّه إحساسٌ، ومعرفةٌ، وإدراكٌ، يتمحور حول الوجود، بشكليه: الوجود الداخليِّ، والوجود الخارجيِّ. عُرِّفَ كذلك بأنَّه الإدراك الذي يختصُّ به الفرد شخصيًّا، ويتعلَّق بوعيه وبإدراكه لكلِّ ما هو فريدٌ في بيئته، بالإضافة إلى إدراكه أحاسيسه، ومشاعره، وذكرياته، وأفكاره. في السياق إياه، يُنظر إلى الوعي أيضًا بأنَّه إدراكَ الفرد لذاته والعالم من حوله، وهو ما يتيح التعبير عن تجاربه بالكلمات، وهذا التعبير يُعدُّ جزءًا من الوعي. وذاك يماثل ما ذهب إليه ديكارت لمَّا رأى إلى الوعي بما هو شأن لا يقبل الجدل، بل ولا يمكن دحضه حتى لو اعتقد الفرد أنَّ كلَّ ما يعرفه محضُ وهمٍ، لأنَّ الوعي يتمُّ إدراكه من الباطن، أي من دخيلة الفرد.

تلقاء هذه النقطة بالذات، أومأ علماء النفس إلى مشكلة تفسير ماهيَّة الوعي في اللَّحظة التي يكون فيها الوعي ثمرة اللِّقاء الباطنيِّ بين الفكر والجسد. وهذه المشكلة تُنبِّهُنا إلى ضرورة وعي ماهيَّة الصلة ومكانتها في نظم حركة العالم وموجوداته. ولأنَّ وعي عالم الموجودات بسيط ولا يُدرك إلَّا أجزاءه الحيَّة، فإن ثمَّة شبَهًا ملحوظًا بين ماهيَّة الوعي بما هو وعي، وماهيَّة الصلة بما هي علاقة بين طرفين وأكثر. فإذا لم توجد الأطراف والحدود فلا وجود لشيء اسمه صلة أو علاقة. وعلى ما تنظر الفلسفة الأولى فالعلاقة هي من أوهن مقولات الفكر، بل إنَّها الأكثر زوالاً وتبدُّلاً. ومع ذلك، فهي موجودة مع كونها غير قائمة بذاتها. بها تظهر الأشياء متّحدة من دون أن تختلط، ومتميّزة من دون أن تتفكَّك. وبها تنتظم الأشياء، وتتألَّف فكرة الكون. إنَّها تقتضي الوحدة والكثرة في آن. هي واحدة، وكثيرة بحكم خصيصة الأُلفة التي حظيت بها بين البساطة والتركيب. على صعيد الفكر تربط (العلاقة) بين مواضيع فكريَّة مختلفة وتجمعها في إدراك عقليٍّ واحد، تارة بسببيَّة، وأخرى بتشابه أو تضادٍّ، وثالثة بقرب أو بعد. وعلى صعيد الواقع فإنَّها تجمع بين أقسام كيان، أو بين كائنات كاملة محافظة عليها في تعدُّدها. وإذ يستحيل تقديم توصيف محدَّد للعلاقة حيث لا وجود مستقلٌّ لها، فهي كالماهيَّة من وجه ما، لا موجودة ولا معدومة إلَّا إذا عرض عليها الوجود لتكون به ويكون بها. لذلك سيقول عنها أرسطو، إنَّها واحدة من المقولات العشر، وهي عَرَضٌ يظهر لدى الكائن بمثابة اتِّجاه. إنَّها صوب آخر، تطلُّع، ميلٌ، مرجعٌ، ويقتضي دائمًا لظهوره وجود كائنين متقابلين على الأقلّ. صاحب العلاقة وقطبها الآخر، ثمَّ الاتصال بينهما. (الموسوعة الفلسفيَّة ـ إشراف: معن زيادة- معهد الإنماء العربي ـ بيروت- 1981، (مصطلح علاقة).

لكن ما الرابط بين تشكلات الوعي ووعي العلاقة بين الذات الواعية وأشياء العالم؟

لقد أشارت النظريَّات الانعكاسيَّة الحديثة الى رابطة قويَّة بين الوعي وإدراك الذات. أمَّا الفكرة القائلة بأنَّ الحالات الواعية تتضمَّن قصديَّة مزدوجة فهي ترجع على الأقلِّ إلى

برنتانو(1874) في القرن التاسع عشر. لكنَّ العديد من النظريَّات المعاصرة يزعم أنَّ مثل هذا الإدراك الانعكاسيِّ هو سمة مركزيَّة للحالات العقليَّة الواعية.

في عهد مبكر من تاريخ الميتافيزيقا شاعت فكرة أنَّ جزءًا من العقل لا يتوفَّر أمام ذاته. والمعنيُّ بذلك هو ما سُمِّي بـ «اللَّاشعور»، حيث يكون العقل من السِّعة بما يكفي لكي يُلِمَّ بذاته. ولكن سيكون من العسير العثور على ذلك الجزء عبر تنقيبات العقل الحسابيِّ، أو في اللَّحظة التي ينحدر فيها المرء نحو حالٍ هي أشبه بالفراغ العجيب.

ما الذي نقصده من هذا النوع من الفراغ، وكيف للوعي الانتباهيِّ النَّجاة من سطوته لكي يستأنف هجرته نحو المتعالي؟..

ينتسب هذا النوع من الفراغ إلى عالم الوعي الأدنى بالوجود والموجود. وهذا الفراغ العجيب رغم كونه مسرحًا للألم المتأتّي من انغلاق الأفق أمام إدراك المابعد الميتافيزيقيِّ، يبقى حركة ناشطة في مكابدات الفكر. غير أنَّ هذه المكابدات على جليل ما أنجزت في العلوم البحتة والمعارف الإنسانيَّة فقد دأبت على تكرار السؤال نفسه حول الوجود. وهذا هو السبب الذي أبقاها في فجوة المراوحة من دون أن تحصل على إجابة آمنة. معضلة الفراغ العجيب سوف نلحظها في الانحدار غير المحسوب نحو متاهة لا قرار لها. أمَّا الخائض في دروبها الموحشة فهو محمولٌ على الظنِّ بأنَّ الوعي المسنود إلى حجَّة العقل كفيلٌ بإدراك الحقائق مهما شقَّ مسعى الوصول إليها. لكنْ الظانُّ إيَّاه، كثيرًا ما يغفل عن أمرٍ جلل، وهو أنَّ العقل الذي يقيس وفق ما يتناهى إلى الحواسِّ سوف يمسي مع الزمن باعثَ معضلات كبرى فلا همَّ لأهل العقل القياسيِّ سوى الإمعان في صناعة السؤال. حتى غدا الاستفهام بالسؤال المحض أدنى إلى وثنٍ للعبادة. كلَّما انتهى من سؤال ابتدأ آخر من دون أن يفلح بإجابة، ويصير السائل كالظمآنِ المضطرِّ لماء البحر، كلَّما شرب ازداد عطشًا.

أمَّا كيف يفتتح الوعي الفائق السبيل إلى مفارقة الخواء، المولود من الفراغ العجيب، فلهذا خمسة منازل:

المنزل الأوَّل: بعد الفراغ العجيب بقليل يتنبَّه الخارج من أسره إلى أنَّ يدًّا قدسيَّة تمتدُّ نحوه وتُشعِرُه بشيء من الأمان وَسَعةِ النظر. عند هذا "التأتِّي اللَّطفانيِّ" النازل عليه من الامتلاء المحض، سوف يسائل المتنبِّه نفسه عن الكيفيَّة التي ينبغي له أن يستقبله بها. والتأتِّي بهذه الصورة غالبًا ما يتدفَّق على الناجين من أغلال الفراغ العجيب من دون حساب. فهو تدفُّق مفاجئ يثير مشاعر مفارقة تتراوح بين الدَّهشة والحبور والتهيُّب. ورغم الفجأة التي غمرته برهبتها، لا يجد الناجي غرابة في ما حلَّ فيه. فالتأتِّي اللَّطفانيُّ من اليد القدسيَّة ينبسط أمام المتلقّي على غير صورة. حينًا على هيئة عقلٍ هادٍ، وحينًا آخر كفيضٍ قدسيٍّ يعتني به ويمدُّه بالسرور العجيب.

وحينًا ثالثًا على صورة روح كليِّ العطاء ينفق عليه من غير منَّة. لكنّ اليد القدسيَّة فوق كلِّ الذي قيل، ليست إلاَّ ما هي عليه في ذاتها. ذلك بأنَّها أشدُّ بعدًا من كلِّ كائن، وفي الآن عينه هي أقربُ الى كلِّ كائن من كلِّ كائن. من أجل هذا، لا يقدر المرء على وعي سرِّها إلاَّ إذا غادر كهف أنانيَّته، وانْسَرَحَ في الكائنيَّة اللَّامتناهية الصور والأشكال. أمَّا كيف له أن يفعل ذلك.. فدون ذلك بابٌ عالٍ سيكون على المتوجِّه شطر المحضر القدسيِّ أن يمضي نحوه بلا كلل، والإيقان بأنَّ ثمَّة بعدٍ الفتح ما يملأ الفراغ العجيب حضورًا عجبًا.

المنزل الثَّاني: يصل الناجي من الفراغ العجيب إلى استشعار الموجة الأولى من إلهامات الوعي الفائق، ومع هذه الموجة يتسنَّى له العبور من عالم الإثنينيَّة حيث التناقض والاضطراب، إلى الإنسجام الهنيِّ في عالم مستحدث هو عالم المثنَّى حيث الزوجيَّة الخلاَّقة تسري بانتظام تحت عناية الألوهيَّة الراعية. مع هذه الانعطافة يدرك الكائن الواعي أنَّ كلَّ ما في الإثنينيَّة المضطربة والمتناقضة آيلٌ إلى الاختصام والفرقة، وأنَّ كلَّ شيء في منطق المثنَّى محمولٌ على الانسجام والجمع. مرجع الأمر أنَّ الزوجيَّة التي أنشأت مقام المثنَّى لا تعمل إلاَّ وفقًا لقانون التكامل. ولأنَّها كذلك، فإنَّ سعيها إلى الوحدة، يجري طبقًا لمبدأ الامتداد الجوهريِّ في عالم الكثرة والتنوُّع. وعلى هذا المبدأ الساري عبر الانسجام والتناسب بين قطبي المثنَّى، لا يعود ثمَّة قطيعة بين أجزاء العالم، وإنَّما وصلٌ وتوادٌّ ورحمانيَّة. فمن كان له حظٌّ مجاوزة «الفراغ العجيب» لن يغفل عن هذه السَيريَّة الآيلة الى رتقِ الانفصال الموهوم بين الغيب والحضور.

المنزل الثَّالث: كنَّا سألنا في ما سبق عن ماهيَّة وطبيعة الوعي الذي به يُدرك ما يقع وراء طور الوعي بظواهر الأشياء. كانت الإجابة حينئذٍ أن لا مناص من بذلٍ غير عاديٍّ يتولاَّه الفكر لبلوغ هذه الرتبة الفائقة من الوعي. المقصود بالبذل هنا ليس ذاك الذي يحفر مساره في حقول البحث التي عهدتها المعارف والعلوم الإنسانيَّة قصد انتزاع المفاهيم من جدليَّات الطبيعة وحركة التاريخ، وإنَّما ترقُّب ما هو مستتر وكامن وخفيٌّ في تلك الجدليَّات والظواهر. والترقّب يعني الإنصات النبيه لنداء الكون الممتلئ برقائق الانتظام وحسن التقويم. بإزاء هذا الكون عكف فلاسفة العلم، القدماء منهم والمحدثون، على النظر إليه كآلة شديدة الإتقان، وفسَّروا حركته تفسيراً آليًّا لا غرض لها من قبل واحد من بعد. كذلك ذهب ديفيد هيوم في القرن الثامن عشر الميلاديِّ ليقول: إذا نظرت إلى العالم من حولك، سوف تكتشف أنَّه ليس شيئًا سوى أنَّه آلة عظيمة تنقسم إلى عدد لا نهاية له من الآلات الفرعيَّة الصغيرة». وسيراً على هذا الكلام الذي

يشكِّل امتدادًا لمنطق وضعانيٍّ يعي العالم وعيًا ماديًّا محضًا، ما يعني أنَّ كلَّ ما يحدث في هذا العالم لا يمكن فهمهُ إلَّا بطريقة آليَّة مع استبعاد التفسير الغائيِّ لحدوثه.

المنزل الرَّابع: لا علم حقيقيًّا يؤتى بخيريَّته من دون وعي، ولا معرفة حقيقيَّة تؤتي أُكُلَها من دون وعي مبتدإها ومنتهاها. ولا كذلك ثمَّة معرفة حقَّة بلا وعي المعروف على حقيقته الجوهريَّة. فالاكتفاء بحضور الشيء تحت رأي العين لا يفيد وعيًا به. إنَّما هو محض عبور لناظر من بُعد، أو لناظر في سراب صحراويٍّ ظنَّ أنَّه ماء عذب. وعي الشيء هو الانتباه لحقيقته المجرَّدة من أظلّه الحواسّ الخمس وضلالاتها.

المنزل الخامس: الوعي «الما بعديُّ» الخارج للتوِّ من محنة الخواء والعدم، لا يعود يعبأ بالتشظِّي والانقسام. فإنَّه متحيِّزٌ بقوَّة لعليا التوحيد، ولذا ستجده حاثًّا خطاه بالانجذاب غير الكسول إلى مصادقة الجميل. وبفضل مصادقة الجميل يتقدَّم الوعي «الما بعديُّ» بالنظر الحكيم إلى الرَّابطة التكوينيَّة بين العقل والإيمان ولسان حاله يقول: العقل الذي ينفي الإيمان ويدمِّره، ينفي نفسه ويدمِّرَها. والإيمان الذي يُعرض عن العقل أو يزجره سينتهي إلى المآل إيَّاه.. لكنَّ الإيمان النافي لغيره، والمنأخذ بأنانيَّته يدمِّر نفسه مثلما يدمِّر الأصل الذي جاء منه. لكنَّ الوعي المابعديَّ بما هو وعيٌ جامعٌ للشمل متصالح مع ما سواه، قابلٌ له، مقبلٌ إليه، ومُقِرٌّ بما يحويه من صواب وحقَّانيَّة. لهذا، حين يلتئم شمل الموجودات وفق الوعي التوحيديِّ للوجود، تزول الرّيبة الممتنعة عن الوصل. وسيكون بديهيًّا ألَّا يهتمَّ المرء اهتمامًا لا متناهيًا بشيء إلَّا حين ينتمي إليه جوهريًّا. ولئن كان الإنسان بطبعه محتاجًا إلى الانتماء، إلَّا أنه في الحضرة الإلهيَّة سيكون محتاجًا إلى انتماء من نوع خاصّ. ذلك الانتماء هو الإيمان نفسه، وهو الميثاق الذي ينعقد مع الله على جدليَّة الوصل والفصل، وعلى نحو التناسب والعدل: وصلٌ تمليه التدبيرات الإلهيَّة لعالم الخلق، وفصلٌ يوجبه تأبيِّ الذات القدسيَّة عن حدقات الأعين وتنزُّهها عن مخالطة الأشياء.

٧

الإنصات النبيه بوصفه عمدة الوعي الفائق

من خصائص الانتباه كما سبق وذكرنا، الإنصات لنداء الكون المسدَّد بالألوهية الراعية. وما هذا إلَّا لأجل أن يُفتح للمُنصت بابُ الفهم، ويتهيَّأ لتلقّي ما هو فائق من الإدراك. وبهذا

ينبغي الانتباه إلى واحدة من أدقِّ رقائق الوعي، وهي التمييز بين الكون الواعي والكائن الأقدس الذي منحه هذا الوعي.

وإذا كان شرط الإنصات الواعي الانتباه، فلن يكون ثمَة إنصات إذًا من دون انتباهٍ واعٍ للمنصوت إليه. فمن كان له حظُّ الإنصاتِ استوت له الهجرة إلى الضفَّة الأخرى من الوعي بالوجود الأتمّ. فإذا تهيَّأت للمنصِت مقتضيات العبور فلا يعبر إلَّا بميثاق. والميثاق لزومُه الإصغاء بسمعٍ واعٍ نظير ما وصفه القرآن الكريم بالأذُنِ الواعية. فإن من حظيَ بهذه المنزلة من الوعي استغنى عن النظر المجرَّد، وبلغ محلاًّ لا تشوب صفاءَه ضوضاء النفس وأكدارها. هنالك قد يُهتفُ له من وراء سَتْر: لئن أصَخْتَ السمعَ عَرَفْتَ الطريق، وإن أغمضْتَ الطَّرْفَ قليلاً جاءتك الكلمات همسًا، فجميع ما ورد على مسمعك استحقَّ لك. ثمَّ إنَّك لن تلبث في العتمة إلَّا قليلاً، حتى يلوحُ لك برقٌ يملأ صدرك انشراحًا. وحالذاك لن تجزع لوهلة الضوء؛ فالذي ظهر في المشاهدة إن هو إلَّا تنبيهٌ عمَّا ينبغي عليك أن تصطفي: إمَّا أن تُعرِضَ عمَّا عَرَض عليك من أوهام، أو أن تتَّخذ من رعدة الانتباه جسرَ نجاة أخير.

إنَّه الإصغاء لنداء السرائر؛ ذاك الذي يفضي بالمصغي إلى الوقوف على ما هو مكنونٌ في ذات الأشياء. ففي الحياة الواعية يكون العالم منسابًا على غير انقطاع في وحدة حياة الأشياء على كثرتها. في الآن عينه، هذه الإنسيابيَّة التي تمنح وعيًا بالوجود البسيط للأشياء لا يشمل بالضرورة كلَّ حال فرديَّة. وهذا يعود إلى التفاوت الحاصل في عالم الكثرة بحيث يكون لكلِّ واحد في هذا العالم حظٌّ من الوعي بوجود لا يطابق حظوظ سواه. مع ذلك يبقى ثمَّة انسجام للإدراك الكلّيِّ بالعالم من حيث هو أفق التعرُّف على الأشياء الموجودة والشاملة والمشتركة بين جميع الناس.

وفق السيريَّات التي مرَّت، يروح الوعي الفائق يشقُّ صراطه المعرفيَّ. يؤسِّس ذاته على أصالة الفكرة الخالقة التي تختزن عوامل الديمومة والتوليد. فإنَّ كلَّ فكرة لا تؤسِّس ولا يؤسَّس عليها هي فكرة شقيَّة تفضي إلى وعيٍ شقيّ. والوعي الشقيُّ ما آنَسَ أصحابُه إلَّا خلائط العقل الأدنى، فاتَّخذوها سمتًا لهم، ثمَّ لم يميِزوا بين الأعراض الفانية، وبين ما هو باقٍ لا يقبل الفناء.